تشرين

العدد ١١٣٦٣ الثلاثاء ٤ جمادى الأولى ١٤٣٣هـ الموافق ٢٧ آذار ٢٠١٢م

عبد المعين الملوحي

أستاذ الأجيال.. في ذكرى رحيله السادسة

كان يعلق في غرفة مكتبه لوحة كتب عليها عبارة لغاندي تقول: (لا أريد لبيتي أن يكون صوراً من جميع الجهات، ولا أريد أن تكون نوافذي مغلقة، أريد أن تهب على بيتي ثقافات كل الأمم بكل ما أمكن من حرية، ولكني أنكر على أي منها أن تقتلعني من أقدامي...). من خلال هذه الكلمات تستطيع أن تتلمس ملامح هذا الرجل الكبير الذي رحل عنا مخلفاً وراءه إرثاً عظيماً من مختلف أنواع الأدب نثراً وشعراً وترجمة... إنه الأديب عبد المعين الملوحي الذي مرت ذكرى رحيله السادسة منذ أيام وتحديداً في ٢١ من آذار.. وكأنه على موعد مع الربيع لعله يلقاه في العالم الآخر بعد المرارة التي عانى منها في الحياة الدنيا.. عاش ابن مدينة حمص بين عامي ١٩١٧ - ٢٠٠٦، وكان جده الشيخ زكريا شاعراً، وأبوه المرحوم الشيخ سعيد شيخ حمص وإمام المسجد النوري الكبير. بدأ كتابة الشعر وهو في الثانية عشرة من عمره، وترك خلفه أكثر من ٩٦ كتاباً مطبوعاً والكثير من المخطوطات غير المطبوعة. كانت حياته حافلة بالنضال والعمل والعطاء وعاش متمسكاً بالمثل العليا فلم ينافق، ولم يخادع، ولم يبع قلمه لأحد. زاره القائد الخالد حافظ الأسد الذي كان من أحد تلاميذه وعندما سأله القائد الخالد ماذا تطلب طلب السماح بطباعة مؤلف مترجم من الشعر الفيتنامي وعلى إثر ترجمة وطباعة هذا المؤلف نال جائزة الصداقة الفيتنامية. وقد نال العديد من الأوسمة منها من دولة بولونيا ولقب أستاذ شرف من جامعة بكين. وكان الشاعر عبد المعين الملوحي عضواً في مجمع اللغة العربية. كتب العديد من المقالات للصحف ولاسيما في جريدة «صوت الشعب» التي تصدر في دمشق وكان يذيل مقالاته باسم «عبد المعين الملوحي شيوعي مزمن». نشر أول قصيدة له عام ١٩٣٦، ونشر أول كتاب مترجم له «ذكريات حياتي الأدبية» لمكسيم غوركي عام ١٩٤٤ في القاهرة. ليقارب عدد الكتب التي نشرها المئة كتاب في الشعر، والترجمة، وتحقيق التراث، والأدب الذاتي، فضلاً عن عشرات المخطوطات التي بقيت تنتظر النشر بعد رحيله. بدأ العمل مدرساً في العام ١٩٤٥ ودرس في حمص واللاذقية وحماه، وتخرج على يديه العديد من المثقفين والأدباء والسياسيين وأصحاب المراكز العليا في الحزب والدولة. ثم عمل مفتشاً في أغلب محافظات القطر، ومن ثم مديراً للمركز الثقافي في حمص، وفي دمشق، وعين مستشاراً في رئاسة الجمهورية. منحته حكومة فيتنام أرفع أوسمتها واختارته الصين أستاذ شرف في جامعة بكين، كما حصل على وسام الثقافة من جمهورية بولونيا، وكرمته جامعة «البنجاب» في الباكستان. وعن اهتمامه بالتراث العربي يقول إن: (هذا التراث جزء من وجودنا، ونحن حين نحييه نبعث أرواح آبائنا وأجدادنا.. التراث بالنسبة للإنسان كالجذر بالنسبة إلى الشجرة، إذا مات الجذر ماتت الشجرة). كان لدى الأديب الملوحي اهتماماً خاصاً بالشعراء الصعاليك، وهؤلاء برأيه كانوا ثوريين ودافعوا عن حق الفقير بأن يجد طعامه ورزقه، وهاجموا الأغنياء وأخذوا منهم أموالاً ووزعوها على الفقراء. ولقد جمع ٦٥ شاعراً صعلوكاً يمثلون أرقى ما وصل إليه الفكر الغيري عند العرب. وأول كتاب حققه ونشره من التراث العربي عام ١٩٦٠ كان ديوان (ديك الجن الحمصي). رثى عبد المعين الملوحي نفسه بعد أن رثى زوجته وابنته، بقصيدة طويلة تبلغ ٢٠٠ بيت، قلد فيها مالك ابن الريب عندما رثى نفسه.. وذكر في هذه القصيدة مكتبته الضخمة التي تضم أكثر من ١٤ ألف كتاب قائلاً:

تذكَّرتُ من يبكي عليَّ فلم أجدْ
سوى قلمي و الطرسِ والحبر باكيا
ومكتبة أودعتُ روحي رفوفَها
تكاد إذاً ما متُّ تسعى أماميا